مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
العدد الثالث/ جوان 2016

Mila Univ center. Publish. Co.

تجليات العنف وتمظهراته في شعر الحماسة العربي
من خلال كتاب "أيام العرب" لأبي عبيدة

Manifestations of Violence in the Arabic poetry of Enthusiasm: A case Study of Abu Ubeidah's "The Days of Arabs"

د. عبد العزيز شويط
جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل - الجزائر

تاريخ الاستلام: 2015/11/19 تاريخ قبول النشر: 2016/03/15

الملخص :

لقد كان العنف اللفظي لصيقا بالعنف الفعلي في الحياة العربية القديمة، وملازما له في الحضور، ضمن ما كان يكتنفهم من حياة البداوة، بل وكلما كان العرب أقرب إلى البداوة كان العنف ألصق بهم. العنف الفعلي ينعكس على العنف اللفظي كما ينعكس الوجه على المرآة، ولذلك كانت البيئة العربية الجاهلية ، بما اتصفت به من بداوة ، مسرحا للعنف الفعلي والقولي (اللفظي) كليهما. نلمس ذلك من خلال " كتاب أيام العرب" لأبي عبيدة حين يتحدث عن حروب العرب في الجاهلية، ويأتينا بما رافقها من أدب جاهلي (شعرا ونثرا) يعبر عن هذه الحروب ويستخدم العنف اللفظي الذي ناسب حكاية العنف الفعلي فيما جرى من حروب طاحنة صاغت الحياة العربية الجاهلية.

الكلمات المفتاحية: عنف، جاهلية، بداوة، محاكاة .

Abstract :

Verbal violence was linked to physical violence in the old Arab life, and it was concomitant with it in their Bedouin life. The more Arabs were closer to the Bedouin life, the more they were violent. Physical violence reflects verbal violence in the same way a mirror reflects one's face. That is why the pre-Islamic Arab environment, which is characterized by nomadism, was the arena of both physical and verbal violence. We can see this in Abu Ubeidah's "The Book of the Days of Arabs", where he talks about the Arab wars in the pre-Islamic literature- poetry and prose- that accompanied and described them. He uses verbal violence which suits the tales of actual violence, including the fierce wars that shaped the Pre-Islamic Arab life.

***Key words**: violence, pre-Islamic era, Bedouin life, poetry of enthusiasm.*

مقدمة:

تاريخ الجاهلية عند العرب هو تاريخ العنف بلا منازع، وهو أيضا تاريخ البداوة بلا شك، وتاريخ الغضب بلا مبالغة. مما يعني أنه تاريخ السيف والرمح والقوس والقناة والخنجر، تاريخ الدم والسب والشتم والهجاء أيضا. قد تحيل إلى ذلك مدونات السّير ومدونات الرواية الأدبية على حد سواء ومدونات الشعر العربي الحماسي. ومهما غلبت الغنائية والذاتية والخيال المتعلق بالصورة على الشعر العربي إلا أن ذلك لا يلغي عنه الحقيقة التاريخية والموضوعية في سرد ملاحم العرب وحروبها تحديدا، ولا يلغي عنه الصدق في سرد تفاصيل العنف عند العرب في ظل الحياة بداوة والحياة القبلية والجاهلية، قد يبالغ هذا الشاعر، وقد يضيف ولكن الفارق لن يكون كبيرا بين إحصائيات السكان وإحصائيات القتلى والجرحى. لقد حفل التاريخ العربي قبل الإسلام بالعنف، ليس لأن النظام لم يكن موجودا وليس لأن فضائل الحكمة والإنسانية والرحمة لم تكن موجودة، وإنما للاضطراب الحاصل في هذه القيم وفي غيرها مما يشكله مبدأ المروءة. ثم إن النظام القبلي السائد آنذاك كان مبنيا على العصبية حتى قال دريد بن الصمة :

((و ما أنا إلا من غزية إن غوت +++ غويت و إن ترشد غزية أرشد))

وهو ما يُمثّل بالعصبية القبلية. يضاف إليها ما عرف عن هذا العصر من جهل وغضب وسفه حتى قال شاعرهم مفاخرا وفي ذهنه تاريخ العنف بين أعمامه بكر وتغلب وهو عمرو بن كلثوم التغلبي:

((ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا)) .

أما وإن الاضطراب الحاصل في القيم الأخلاقية التي تبيح للشجاع أن يغامر بنفسه فيتحدى جيشا وهو التهور بعينه، وتبيح للكريم أن يذبح فرسه وولده لضيفه ويفقر نفسه وأهله وقبيلته ليكون كريما وهو الإسراف بذاته، وتبيح للأب أن يدفن في التراب فلذة كبده يدسها في التراب وقلبه يتحرق عليها لأنه غيور على مستقبلها وهو الإجرام بعينه. أما وقد زادت هذه الأخلاق عن حدها، فقد انقلبت إلى ضدها، ولذلك ورد في الأثر عن رسول الله (ص) قوله:((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

إن الخلل الذي أصاب النظام القبلي بالعصبية وبالظلم والحيف، وأصاب الأخلاق بالاضطراب واضطراب مفاهيمها هو الذي جعل العنف يحل محل الحكمة والحوار واللين والتفاهم، فسادت الحروب الجزيرة العربية، وساد الجهل والغضب والسفه هذه البقعة يمهدها

الله تبارك وتعالى لتقبل الرسالة الجديدة .فقد كانت على شفا حفرة من النار بفعل التطاحن والتقاتل واللاأمن، إلا في أشهرها الحرم التي لم تسلم هي نفسها أحيانا من الخرق حتى في البلد الحرام. قال تعالى:((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103).))[1]ولكثرة ما ساد البلاد العربية من الحروب الطويلة اختارت المدونات السيرية أشهرها وأعنفها وأطولها وسمتها الأيام، والتي كانت بين القبائل العربية وأحلافها، هذه الأيام تتدلع لأتفه الأسباب، و هذه الأسباب قد لا تعدو أن تكون فرسا أو ناقة أو جملا .

لم نجد في التاريخ العربي مدونات تجمع لنا هذا التاريخ من وصف الحروب بتفاصيلها وأسبابها ووقائعها وزمانها ومكانها و نتائجها ولاسيما جرحاها وقتلاها من الأبطال، وتضم لنا بين دفتيها حماستها وهجاءها ورثاءها وفخرها إلا كتب الأيام هذه وعلى رأسها جميعا كتاب أيام العرب لأبي عبيدة، فهو حافل بوصف هذه الحروب يجمعها ويوثق لنا تاريخ العنف فيها.

تمهيد (تحديد المفاهيم و تدقيق التفاصيل)

يحدد المعجم العربي القديم مادة عنف الثلاثية تحديدا لغويا فيقول عنها:((العُنْفُ، مُثَلَّثَةَ العَيْنِ: ضِدُّ الرِّفْقِ. عَنُفَ، ككَرُمَ، عليه،به، وأَعْنَفْتُه أنا، وعَنَّفْتُه تَعْنِيفاً.. والعَنِيفُ: مَن لا رِفْقَ له برُكوبِ الخَيْلِ، والشديدُ من القولِ والسيرِ. وكان ذلك مِنَّا عُنْفَةً، بالضم وبضمتين، واعْتِنَافاً، أي: ائْتِنَافاً. وعُنْفُوانُ الشيءِ، بالضم، وعُنْفُوَّه، مُشددةً: أوَّلُه، أو أوّلُ بَهْجَتِه.. وهم يَخْرُجُونَ عُنْفُوَاناً عَنْفاً عَنْفاً، بالفتحِ: أوّلاً فأوّلاً. والعَنَفَةُ، مُحرَّكةً: الذي يَضْرِبُهُ الماءُ فَيُديرُ الرَّحَى، وما بَيْنَ خَطَّيِ الزَّرْعِ. واعْتَنَفَ الأَمْرَ: أَخَذَهُ بعُنْفٍ، وابْتَدَأَه، وائْتَنَفَهُ، وجَهِلَهُ، أو أتاهُ ولم يَكُنْ له به علمٌ. والطعامَ، والأَرْضَ: كَرِهَهُمَا، والأَرْضُ: لم توافِقْني. وإبلٌ مُعْتَنِفَةٌ: لا توافِقُهَا. واعْتَنَفَ المَجْلِسَ: تَحَوَّلَ عنه، والمَراعِيَ: رَعَى أُنُفَها. وطريقٌ مُعْتَنَفٌ: غيرُ قاصِدٍ. (وعَنَّفَه: لامَه بعُنْفٍ وشِدَّةٍ).))[2] وهو ما يصبّ في خانة القسوة والشّدة وإلحاق الضّرر بالنّفس أو بالغير سواء بإلحاق الأذى النفسي أو الجسدي ومهما كانت الوسائل بما في ذلك وسيلة الكلام وبقية نظم العلامة.

كما يحدّد المعجم العربي الحديث نفس المادة ولا يخرج عما حدّده الأوائل لها من مدلول لغوي، وهو الأذى والقسوة والعنف والإيذاء، وذلك من خلال ما ورد في المعجم

الوسيط عنها:((عنُف به وعليه عنفا، وعنافة: أخذه بشدة وقسوة، ولامه وغيّره فهو عنيف(ج) عُنُف...))[3] مما يعني أن اللفظة لم تتطور كثيرا ولم يتغير مفهومها، بل حافظت على ذات المفهوم اللغوي الأول، وإنما توسعت استعمالاتها لتدخل حقولا معرفية أخرى وعلوما جديدة كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم القضاء أو القوانين والنظم...الخ.

هذا عن المدلول اللغوي لمادة "عنف" الثلاثية. أما إذا رجعنا إلى الاصطلاح فيمكن الاستعانة بمعجم معتبر من حيث الدقة والشمول للموضوعات، وليكن معجم العلوم الإنسانية الذي ورد فيه:((يتخذ العنف في المجتمعات الإنسانية أشكالا مختلفة: شكل الحرب (البين تقنية، بين دولية حرب أهلية، وغزو)، وشكل الجريمة والأعمال المنحرفة (العاطفية، السياسية، الماجنة) وعنف الدولة (القمع، التعذيب، العزل)،والشكل الأكثر انتشارا، مثل المشاجرات والمشاحنات بين الأفراد (أثناء الفرص أو بين اللعب)، وثمة أعمال عنف خفية(العنف الزوجي، الاغتصاب، سوء معاملة الأولاد)، وثمة أعمال قصاص يفرضها السلك الكهنوتي أو الأهل أو المربين وأسياد العبيد الآخرين...هل ثمة حل للتواصل بين هذه الظواهر المختلفة؟ هل يمكننا أن نجمع تحت عبارة واحدة ظواهر على هذه الدرجة من الاختلاف، مثل الإبادة الجماعية وضربة الكف؟ هل يخضع ذلك كله لتحليل عام؟ يطرح السؤال، مع العلم أن عبارة "عنف" التي طالما أشارت إلى الأعمال الجسدية قد تعدت الآن هذا النطاق إلى إعمال العنف الأخلاقية: عنف كلامي، الإزعاج الأخلاقي إلى جانب العنف الرمزي. كذلك بات الحديث الآن يتناول العنف على الطريق(المضايقة) والعنف المدرسي، والعنف المدني في إشارة إلى ظواهر متعددة الأشكال))[4]وهو الشمول الذي قصدناه أولا ويرومه الباحث عن حقيقة هذا المفهوم، وهو – حقيقة – ما لم يغفله التعريف اللغوي العربي ما دام قد تطرق إلى اللوم باعتباره تعنيفا يدخل باب ما أشار إليه قاموس العلوم الإنسانية من "عنف كلامي". و يمكن أن يضاف إلى ذلك العنف المديني الذي تمارسه جماعات من الشبان في الأحياء المهمشة وأحياء الضواحي في فرنسا و أمريكا و يمارسون العنف ضد النظام على شكل تخريب وشغب وسرقة وتعديات كلامية...الخ[5].

إن اللغة في حد ذاتها مليئة بالعنف، بل العنف من طبيعة اللغة، مهما كانت ظاهرة أم خفية في شكل التعبيرات المجازية من مثل الكناية والتلاعب بالكلمات والتصحيف، ولذلك يبدي "لوسيركل" في كتابه عنف اللغة ((اهتماما كبيرا بموضوع الكناية والتورية

والتلاعب بالألفاظ في مواضع متعددة من كتابه. وهو يعتبر ذلك مظهرا من مظاهر العنف الذي يوقعه المتكلم باللغة، وتتقبله اللغة بسرور. فهو، كما يصفه الفرنسيون ذلك "العنف اللذيذ "الذي يبهج النفس لأنه يستجيب لدواع مخبوءة في العقل الباطن))[6].

لقد قررنا فيما سبق أن حياة العرب في الجاهلية قد غلب عليها وصف العنف وممارسته للاعتبارات التي تمّ ذكرها، و منه فإن السير التي رويت عن هذه الحياة في أهم وأشهر وأعظم أيامها أيام الفروسية والسلاح [7]حيث لا مندوحة عن تناولها لهذا العنف بالتفصيل الممل ما دام هو السائد في الحياة وهو الغالب على النشاط البشري، إما لخطورته وأهميته في تاريخ العرب. وهل أخطر من الحرب وأهم منها على الإنسان؟ !وإما لطول أمده ومنها(الحروب) ما بلغت الأربعين سنة وهو عمر إنسان حتى أطلق عليها اسم الأيام لغلبتها على بقية الأيام في الذكر والتناول والاهتمام حتى في ليالي السمر، وحتى بعد مجيء الإسلام، لأن العرب هم العرب لم يتبدلوا، و لم يبتعد زمنهم عن زمن هذه الأيام، ولأن المسلمين هم أبناء الجاهليين، ومنهم من عاد ليمارس عنفا أشبه بعنف الجاهلية وهو يعيش الإسلام، حين عادت ذات الظروف في العهد الأموي من بداوة وعصبية، هل يمكن اعتبارها شروطا نظامية ؟ ربما. ومن هنا اكتسبت هذه الأيام فيما بعد انقضائها بأزمان أهميتها وقيمتها التاريخية سمرا وأدبا وعلما بالتاريخ وبالأدب الذي قيل فيها، واتعاظا وعبرة، وحتى افتخارا ولم لا؟ في زمن عودة العصبية القبلية من جديد.

من أجل ذلك كانت الحاجة لتدوين هذه الأيام (الحروب) ملحة في تاريخ العرب الكتابي وضمن شعريتها الكتابية((ثم هي في أسلوبها القصصي وبيانها الفني مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم وأسلوب الحياة الدائرة بينهم، وشأنهم في الحرب والسلم، والاجتماع والفرقة، والفداء والأسر، والنجعة والاستقرار...ولو نظرت إلى الشعر الجاهلي في جملته وتفصيله، وبخاصة ما كان في الفخر والحماسة والرثاء والهجاء، فإنك تجده قد ارتبط بهذه الأيام ارتباطا تاما))[8] وهو المبرر العلمي الذي حتّم على العرب الاهتمام بها قبل أن ترجع العصبية القبلية من جديد في العصر الأموي، وحتى بعد ذهابها فيما جاء بعد عصر النقائض من عصور.

إن ميل أبي عبيدة إلى رصد شعر العنف لا يتجلى فيما صحت نسبته إليه من كتاب أيام العرب، و الأيام تعني الحروب، وإنما تعداه إلى ما يدل دلالة قاطعة على العنف وأعني بذلك تأليفه لكتاب "نقائض الفرزدق وجرير "بكل ما يمثله فن النقائض العربية من

قمم في التجريح والسب والشتم والتعيير اللاذع والقاسي والمرّ. وهو النموذج الثاني الذي يفسر التشابه في الملامح بين العصرين، على الأقل في عودة القبيلة وسطوتها من جديد. ومع أن الكتاب الأول لم يصلنا إلا أن النقائض وصلتنا وفيها الكثير مما كتبه صاحبه في "أيام العرب في الجاهلية" هذه الأيام التي تعني الحروب كما أسلفنا، فقد((كانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياما، لأنهم كانوا يتحاربون نهارا، إذا جنهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح. وأيامهم وحروبهم كثيرة...و تسمى هذه الأيام غالبا بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها...وتسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها))[9].على اعتبار استعظامهم للحرب وهي تعيش معهم، فهم واعون بخطورتها، وعندهم أن من أشعلها مذموم و مشؤوم كما فعلوا مع "البسوس" المرأة / الحرب .

هذا وإن بدا كتاب" أيام العرب قبل الإسلام" لأبي عبيدة بجمع وتحقيق الدكتور عادل جاسم البياتي[10] قليل الحجم وليس بالضرورة قليل تقرير ووصف العنف، وهو كذلك في الحقيقة، فهو لا يزيد كثيرا عن المائة و الستين صفحة ،أي من صفحة 397 إلى صفحة 558 وهذه المائة والستون صفحة توزعت على: يوم خزار، يوم البردان، يوم الكلاب الأول، يوم الكلاب الثاني والصفقة، يوم منعج (وهو وما يليه من أيام عامر وغطفان)، يوم بطن عاقل، يوم رحرحان، يوم الخربة، خبر الحارث وعمر بن الإطنابة، نهاية الحارث بن ظالم، أيام بكر وشيبان(البسوس)، ويوم القريتين. وإنما كانت المدونة التي بين أيدينا تضيف إلى العنوان الأصلي لها "كتاب أيام العرب قبل الإسلام" لأبي عبيدة، عبارة "ملتقطات من الكتب والمخطوطات"، ثم تضيف عبارة "القسم الأول". مما يوحي بالضياع والنقص الذي لحق هذا الكتاب لأبي عبيدة، وتتم ما يمكن أن يتصور من نقص لعملية الجمع المرتكزة على ما توفر وتيسر من مضان الأدب الناقلة عن هذا الكتاب غير المكتمل لأبي عبيدة معمر بن المثنى .

وتضيف المدونة إلى هذه العناوين (الرئيسة والثانوية التوضيحية)عبارة أخرى وهي "دراسة مقارنة لملاحم الأيام العربية"، وهي التي استنفدت من الكتاب(المدونة) قرابة الأربعمائة صفحة وبالضبط 396 صفحة. والكتاب جاء في 564 صفحة من القطاع المتوسط ولتقتطع منه أيضا الملخصات بالإنجليزية للأيام العربية، ثم الفهارس والتعريف بمؤلف الكتاب وجامع أيامه المنسوبة لأبي عبيدة من مصادر اللغة و الأدب والتاريخ (البياتي) في نهاية الكتاب من صفحة 559 إلى نهايته. ولذلك سيكون مسرح اشتغالنا على

قرابة المائة والستين صفحة بما احتوت عليه من أيام سواء أكانت سردا ونثرا أم كانت شعرا مُستشهَدا به على الحوادث و الوقائع و الأيام الحروب العربية.

إن القراءة الأولية لهذا الحجم المستصفى يفضي بنا إلى القول: إن المعجم اللفظي الدال على العنف في مدونة كتاب أيام العرب لأبي عبيدة يتنوع بين كلمات: القتل(التصفية الجسدية)،الشتم، السب، التنابز بالألقاب، التهديد، التوعد، ووصف الحرب، وهو ما يشكل ممارسة العنف ضد النفس من خلال تعريضها للخطر وممارسته ضد الغير سواء كان هذا الغير مسلحا مواجها أم أعزلا ضعيفا، وليكن حيوانا أو امرأة أو أطفالا. كما يمكن أن يكون هذا العنف جسديّا من خلال القتل أو الجرح أو الضّرب، وقد يكون كلاميا من خلال السّب والشّتم والهجاء والتعيير، كما يمكن أن يكون بالتنابز بالألقاب، وهو ما يمكن أن يوجه ضد الغير، كما يمكن أن يوجه ضد النفس.

ونلاحظ أن الشعر المتضمن لهذه العلامات اللسانية الدالة على العنف يجعله أبو عبيدة مسبوقا بتوطئات تعبيرية شارحة أم عتبات ممهدة ومقدمة، من أبي عبيدة ويتلوها أيضا أو يلحقها تعليقات أخرى منه تتضمن ذات العلامات اللسانية الدالة على العنف، على عادة البحث أو الكتابة والرواية، فالباحث يمهد بفكرة الأشعار قبل أن يوردها مروية إما بسرد قصة سياق الأشعار، وإما بشرح الأشعار والتعليق عليها، مما يكسب التعليق قيمة توضيحية للعنف إذا تناول شرح علاماته اللسانية ضمن النص الشعري. كما يمكن أن تكون المسبقات بالتقديم لها من خلال العرض لمحتواها في شكله السردي أو الحواري على ألسنة الجاهليين.

وما يلاحظ على تركيز معنى العنف بين التعليق النثري والسرد القصصي من جهة وبين الشعر المعبر عن الحادثة من أي طرف كان، هو خفة حدة العنف في الألفاظ الشعرية وقوة شحنتها الدلالية في مجال العنف في النثر، والسبب في ذلك يرجع إلى الضوابط الشكلية التي يتطلبها الشعر من أوزان وقواف مما يحتم تغيير اللفظة بأخرى وما إلى ذلك مما يقتضيه التضييق الوزني وتضييق التزام القافية. و لذلك كان العنف في هذه المدونة يتربع على:

1- النثر (العنف في السرد والحوار القصصي)

في أيام العرب، وفيما يتعلق بالنثر، نجد العنف اللفظي(السب والشتم والتعيير والتهديد..) فيما يدور بين المتحاورين من حوار. أو فيما يتلو الحادثة من أشعار(الهجاء

والفخر والرثاء). وأما العنف الفعلي(القتل والضرب) فنعثر عليه في النثر فيما يروى من قصص بأسلوب سردي تقرر حقائق جرت وتصف أحداثا وقعت، فمثلا في يوم "خزاز" المشهور يتحدث أبو عبيدة عن ملك من ملوك اليمن فيروي لنا قصة له فيقول: قال:((إيتوني برؤساكم الأخر لآخذ عليهم مواثيقهم بالطاعة، وإلا فاعلموا أني قاتل أصحابكم، ومحاربكم. فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم الخبر. فبعث كليب بن ربيعة فجمعهم، ثم بعث على مقدمته السفاح التغلبي...وأمره أن يوقد على خزازى ليهتدوا بناره. قال له: إن غشيك العدو فافرع نارين))[11]وتظهر في هذه القصة ألفاظ: القتل والحرب والعدو...وهي ألفاظ من ذات الحقل الدلالي الدال على العنف وإلحاق الأذى والتعامل بالقسوة. وفي القصة تبرز معاني التهديد والوعيد بالقتل. ثم لا ننسى ما يمثله لفظ السّفاح كلقب من عنف سواء أرضي به صاحبه أم لم يرض به، فذلك لا يزيح عنه شحنة العنف والقسوة لأن السفاح هو كثير القتل شديده.

في يوم "البردان" وهو أيضا من أيام العرب المشهورة يحدثنا أبو عبيدة عن حوار دار بين أم أنس بنت عوف بن ملحم الشيباني وهي أم الحارث بن حجر وسابيها الحارث بن مندلة، و هو ملك من ملوك سليح بالشام وابن الهبولة مفاده أن أم أنس قالت له عن زوجها حجر آكل المرار:

- إني لأرى ذات ودك، وسوء درك، فإني قد نظرت إلى رجل أسود أدلم، كأن مشافيره مشافير بعير آكل مرار، قد أخذ برقبته(فسمي آكل المرار بذلك)[12]فالمرأة قد تلفظت بألفاظ مؤذية لزوجها لترضي بها سابيها، وهي ألفاظ التعيير بالسواد وبتشبيه مشافره بمشافر البعير الذي يأكل المرار وهو شجر مرّ، حتى سُمي زوجها بهذا الاسم، وهو تنابز باللقب ما دام مشينا.

تعيير آخر في يوم البردان يرويه لنا أبو عبيدة صادرا عن ابن الهبولة:((فأخذه عمرو، وكان قويا، فجعل الفحل ينزع إلى الإبل فاعتقله عمرو، فصرعه. فقال له ابن الهبولة: أما و الله يا بني شيبان، لو كنتم تعتقلون الرجال كما تعتقلون الإبل، لكنتم أنتم أنتم. فقال عمرو: أما والله لقد وهبت قليلا، وشتمت جليلا. ولقد جررت على نفسك شرا، ولتجدني عند ما ساءك))[13].

وفي هذه القصة الكثير من دلالات العنف اللفظي، بل لقد تقرر بالرد أن الفعل صد صدر بالشتم من حيث عيره بالفشل في اعتقال الرجال والنجاح في اعتقال الإبل، ثم ولد

العنف عنفا آخر من قبيل الفعل ورد الفعل فهدد المعيرَّ المعيّر بالشر من جهة وبالسوء من جهة ثانية، وهو عنف كلامي آخر.

مع اليوم نفسه(البردان) وفي القصة نفسها وهي قصة هند (زوجة حجر) مع ابن الهبولة سابيها ينقل إلينا أبو عبيدة الحوار التالي:((ودنا سدوس من القبة، فكان حيث يسمع الكلام. فدنا ابن الهبولة من هند امرأة حجر، فقبلها وداعبها، ثم قال لها فيما يقول: ما ظنك الآن بحجر، لو علم بمكاني منك ؟؟

قالت : ظني به والله، أنه لن يدع طلبك حتى يطالع القصور الحمر، وكأني أنظر إليه في فوارس من بني شيبان، يذمرهم ويذمرونه، وهو شديد الكلب، سريع الطلب، يزيد شدقاه كأنه بعير أكل مرار.

فسُمّي حجر آكل المرار.

فرفع يديه فلطمها، ثم قال:ما قلت هذا، إلا من عجبك به، وحبك له.

فقالت: والله ما بغضت ذا نسمة قط، بغضي له...فقلت يستيقظ فيشرب فيموت فأستريح منه... فقال: كذبت والله))[14].

فبالإضافة إلى تخيّل هند زوجَها في هالة من الحرب والعنف والقوة والجمع ليستردها، نجدها تشبهه بالبعير يأكل المرار وتصفه بالكلب ،وهو من باب العنف الكلامي الذي يؤذي النفس ولا يرضي سامعه.

ثم نعثر في ذات القصة على عنف جسدي متمثل في الضرب الذي وقع على هذه المرأة وتمني الموت للزوج والتصريح ببغضه ونجد الوسم بالكذب، وكلها دلالات للعنف اللفظي في حوار قصير كهذا.

إن ألفاظا وعبارات من مثل "أغاروا" و"أصابوا" و"علا الشر" لهي من باب العنف الفعلي الذي يستحق النهي عنه، و لذلك كان النهي هن هذا الأفعال بالشعر هذه المرة، يروي لنا أبو عبيدة الحادثة التالية عن يوم الكلاب:((وكان بدأ يوم الكلاب، أن الغلفاء سلمة بن عمرو بن الحارث الكندي، كان في بني تغلب ملكا، وكان أخوه شرحبيل ملكا على تميم وقيس وبطون من بكر بن وائل، فعلا الشر بين الملكين. فبعث شرحابيل، مجاشع بن العقيلة التميمي في خيل من بني تميم، فأغاروا على ناحية لبني تغلب، فأصابوا أفراسا سائمة، فقال رجل من بني ذهل بن شيبان كان معهم:

لا تأخذن أفراس تغلب إنـــــها يا ابن العقيلة شوب سم ناقع
و الشر مبدؤه الصغير و هذه فيها مهالك نهشل و مجاشع

ثم أقبل يزري على بني تغلب و يضع منها.

وكان حنش بن مالك التغلبي زوارا للملوك عظيم القدر فيهم، وكان عنده ابنه معبد بن حنش قائم على رأسه بيده قوس له عرابية، فرفع معبد قوسه فضرب بها هامة الملك فطيرها عن رأسه، وسقط الملك مغشيا عليه، وتصايح الناس: قتل الملك !!..

فدخل عمرو فرأى ما بأبيه، فاستوثق من معبد. فلما أفاق قدّم معبد فضرب عنقه، وجعل رأسه بين يديه. فدخل حنش فقال: لا خير لك في صحبتي بعد هذا الرأس، فسرحني سراحا جميلا. فوالله لا أغسل رأسي حتى ألقاك في الخيل التي أزريت عليها. فسرحه وأجّله ثلاثا، فلحق ببني تغلب))[15].

إن ضرب الملك حتى يسقط مغشيا عنه وردّ فعل هذا الأخير بضرب عنق ضاربه وجعل رأسه بين يدي أبيه، وقبل ذلك اعتقال وربط الضارب لمثل هذه الأفعال مما يعبر عن العنف الذي كان يمثل الحياة الجاهلية من رأسها إلى أخمص قدميها، يعقبها التهديد بالانتقام وإعلان الحرب من الوالد على الصديق قاتل الولد، وقبل ذلك كله من رضي باسمه "الحنش"، وهو اسم أو لقب يدل على عنف ما وقسوة ما، وإن كانت العرب تتخير لأولادها أسماء فيها القسوة والشدة وتختار لعبيدها أسماء فيها اللين فيما أثر عنها. ومع ذلك يبقى القتل سيد العنف بلا منازع، وذهاب النفس مصيبة المصائب ومأساة المآسي وقسوة القسوة، يقول أبو عبيدة عن حرب من حروب، أيام العرب:((فاقتتل القوم قتالا شديدا، وثبت بعضهم لبعض، وكان على ميمنة تميم واليمن وبكر، عمرو بن شرحبيل، وعلى الميسرة الأسود بن شرحبيل، وفي القلب أبو عمير المجاشعي، فقصد حنش بن مالك الميمنة وحمل على عمرو بن شرحبيل، فطعنه وصرعه فقال:

- يا ابن المرار، لهذا دعتكم تميم، وهذا بما كسبته يداك ويدا أبيك.

وحمل السّفاح على أبي عمرو المجاشعي فطعنه فقتله. وكثرت القتلى بينهم ثم ولت تميم وأسرفت تغلب في قتلهم))[16].

تلخص هذه القصة خلاصة المعركة وهو "طعنه" و"صرعه" يضاف إلى ذلك الإقرار بشدة القتال، وكثرة القتلى وإسراف قوم في قتل قوم، بكل ما تعنيه كلمات الكثرة والإسراف من معاني القسوة والعنف. يقول شوقي ضيف في ذلك:((لعل أهم ما يميز حياة العرب في

الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنّة من سننهم، فهم دائما قاتلون مقتولون، لا يفرغون من دم إلا إلى دم، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة))[17].بل ويمتلأ كتاب الأيام في التعبير النثري سردا أكان أم وصفا أم حوارا بألفاظ من معجم العنف ومن حقله الدلالي من مثل القتل والطعن وحز الرأس والإلقاء عن الفرس.

أيضا وفي إحدى وقائع يوم "الكلاب الأول "يذكر أبو عبيدة القصة التالية:((ويقال أن بني حنظلة وبني عمرو بن تميم والرباب، لما انهزموا خرج معهم شرحبيل، فلحقهم ذو السنينة(إنما سمّي ذو السنينة، لأنه كانت له سن زائدة، فيها سمي) واسمه حبيب بن عتبة بن حبيب، فالتفت إليه شرحبيل فضرب ذا السنينة على ركبته، فاطنّ رجله، وكان ذو السنينة أخا أبي حنش لأمه، وأمهما سلمى بنت عبدي بن ربيعة، بنت أخي كليب ومهلهل. فقال ذو السنينة:(يا أبا حنش) قتلني الرجل.

(وهلك ذو السنينة)

فقال أبو حنش: قتلني الله إن لم أقتله.

وحمل على شرحبيل، فلما غشيه التفت فقال: يا أبا حنش، اللبن..اللبن.

قال: يا أبا حنش، أملك بسوقة ؟ !..

قال: إنه كان ملكي.

فطعنه أبو حنش فأصاب رادفة السرج، فورعت عنه. ثم تناوله، فألقاه عن فرسه، ونزل إليه فاحتز رأسه...))[18].

فالضّرب والقتل والطّعن والإصابة والإلقاء عن الفرس وحزّ الرأس هي كلها من قبيل الأفعال المنضوية تحت لواء العنف وضمن حقله الدلالي الصريح.

2- الشعر (إن من الهجاء والحماسة لعنف)

الحق أن الهجاء في حدّ ذاته من باب العنف، وإلا لما من يمنعه ويحبس لأجله الشعراء في العصر الإسلامي الأول، ولذلك كان((الهجاء لغة: الذم، والهجاء عند الزمخشري مأخوذة من هجاء الحروف[19].والمرأة تهجو زوجها إذا عددت عيوبه، وللمادة معان أخرى هي أقرب لأن تكون أصلا للمعنى الأدبي: فالهجاة والهاجة: الضّفضع. وهجو يومنا: اشتد حره. وهجي: انكشف، وقد يكون المعنى الأدبي مأخوذا من كل هذه الأصول))[20]وهو لا محالة من صميم العنف في أيام العرب ما دامت قصيدة الحماسة في

الحروب تتضمن الفخر بالمكاسب والانتصارات، بنفس القدر الذي تتضمن الهجاء والتعيير بالهزائم والضعف، وهو من باب العنف الكلامي، فهو لاشك((من فنون الشعر الغنائي يعبر به الشاعر عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء ويمكن أن نسميه فن الشتم والسباب، فهو نقيض المدح، ففي القصيدة الهجائية نجد نقائض نجد نقائض الفضائل التي يتغنى بها المدح، فالغدر ضد الوفاء والبخل ضد الجود والكذب ضد الصدق والجبن ضد الشجاعة والجهل ضد العلم))[21].

أما الحماسة فهي((باب من أبواب الشعر العربي القديم، وقد كان الشاعر العربي القديم لسان قومه في تسجيل مآثرهم، والدفاع عنهم، ونشر محامدهم، وقد وضعت، في عهد التدوين، كتب عديدة في(الحماسة) تعنى كلها باختيار عيون الشعر العربي في موضوعات يغلب عليها طابع البطولة))[22]وهي أيضا((ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة، والانفعال العميق، فقد حفلا بالمغالاة، وانطلق فيهما الخيال مضخما مهولا، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلببة بجلباب العاطفة والخيال، واشتدت فيهما الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتدادا هدارا، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب، كما يرافق في مجالات القتال صهيل الخيول وقعقعات الأسلحة وجلبات المنون))[23]وهو ما كان حاصلا في الحروب العربية الجاهلية التي عُبر عنها بالأيام، يضاف إليها تصوير الصراع وإحصاء القتلى والجرحى، وهو ما يمت بصلة عميقة إلى العنف الموجه ضد الإنسان قصد إلحاق الأذى والضرر به.

وأكثر ما نجد العنف في الشعر في الهجاء وهو ذكر معايب المهجو والتشهير به، ثم يأتي بعد ذلك الحماسة وهي وصف الحرب والنزال وصليل السيوف وإحصاء القتلى والجرحى وعذابات الحرب وكل ما يقاسي فيه المحارب من حر أو برد أو تعب أو خوف...الخ. فـ((قد نشأ الهجاء عند الجاهليين كما نشأ عند غيرهم من الأمم والشعوب، تنديدا بالمعايب الشخصية أول الأمر، ثم تقدم بعد ذلك إلى مشكلات الحياة العامة فكان منه الهجاء السياسي، والأخلاقي، والديني. وقد كثر الهجاء بسبب العصبيات القبلية، وتكاثر الغزوات والحروب))[24]ومنها حرب يوم "البردان" التي احتاجت إلى عنف آخر من المعاقبة حيث ((قال سدوس، في ذلك يعاقب بني شيبان:

ما بعدكم عيش و لا معكم عيش لذي أنف و لا حسب
لولا بنو ذهل و جمع بني قيس و ما جمعت من نشب
ما سمتوني خطة عبنا وعلى ضربة رمتم غلبي))[25]

ويتحدث أبو عبيدة عن تفرق كلمة معد يكرب بعد هلاك والدهم وتقاتلهم وجمعهم لبعضهم الجموع فيقول:((وكان نصحاء سلمة وشرحبيل نهوهما عن الفساد والتحاسد وحذروهما الحرب وعثراتها، فلم يقبلا ولم ينزجرا، وأبيا إلا التتابع واللجاجة.

فقال سلمة في ذلك:

إني علي استتب لومكما ولا تلوما عمرا ولا عٌصٌما
كلا يمين الإله يجمعنا شيء وأخوالنا بني جشما
حتى تزور السباع ملحمة كأنها من ثمود أو إرما))[26]

((وقال حنش بن مالك :

لعمرك مالي في جوارك حاجة ولا خير في عيش بعد قتلم معبدا
أمن ضربة بالقوس لم يدم كلمها ضربت بمصقول الذباب مقلدا
...
فإن تبقني الأيام أجزك مثلها شرحبيل في شبليك عمرو وأسودا
وإلا أنل ثأري من اليوم أجزه بما قدمت كفاك في معبد غدا [27]

و القصة قد تم التعليق عليها سابقا حين ضرب معبد الملك بقوس عرابية وقدم فقطعت رأسه.

وقال امرؤ القيس يعيرهم والتعيير عنف لا محالة :

أحنظل لو حاميتم و كرمتم لأثنيت خيرا صادقا ولأرضاني
ولكن أبى خذلانكم فافتضحتم وخبثتم من سعيكم كل إحسان [28]

وقال أيضا يقبحهم ويوبخهم و يعنفهم في ممارسة واضحة للعنف اللفظي:

ألا قبح الله البراجم كلها وقبح يربوعا وجدع دارما
وآثر بالمخزاة آل مجاشع منون إماء يغتبئن المغارما [29]

3- العنف مع النفس

كثيرا ما نجد حالات من تعذيب النفس وممارسة العنف ضدها، ومهما تعددت الأسباب في ذلك إلا أن العنف يبقى عنفا، مثلما سنرى في هذه القصة التي يرويها أبو عبيدة فيقول:((وقد كان الحارث قبل أن يموت، خرج يتصيّد، فرفعت له عانة، فشدّ فانفرد منها بتيس وألظّ به الحارث، فأعياه، فآلى بألية لا يأكل أولا إلا من كبده، وهو يومئذ بسحلان، فطلبته الخيل ثلاثة أيام، فأتى بعد ثالثة، وقد كاد يموت من الجوع. فضهبت لحمه على النار فأخذ فلذة كبده حارة فأكلها، فمات من حرارتها))[30]فترك النفس بلا طعام حتى تشارف على الهلاك منتهى العنف. كما نجد من يعرض نفسه للتهلكة مشترطا هلاك نفسه إن لم تحقق غاياته ، فيروي أبو عبيدة أنه قد ((أخبر حنش بني تغلب بالخبر(مقتل ولده) ووضع ضبة سيفه على سرته، وحلف ليغمدن عليه حتى يخرج من ظهره أو يدركوا له بثأره.))[31]وهو أيض تعذيب للنفس وممارسة للعنف ضدها.

4- العنف مع الأطفال

عادة، وبعد ممارسة العنف ضد الرجال في المعارك باعتبارهم نظراء و أكفاء مقاتلين ،تكون أكبر طائفة يمارس العنف ضدها هي النساء والأطفال، ولاسيما في بيئة تشبه بيئة الغاب، حيث يأكل القوي الضعيف، فيروي أبو عبيدة أنه قد((نزل شرحبيل ومعه بنو تميم وبطون من اليمن بأسفله(ماء الكلاب)،وكان أول من ورد الكلاب من جمع سلمة، سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنضلة، وكان نازلا في بني تغلب من إخوته لأمه، فقتلت بكر بن وائل ستة بنين له، فيهم مرة بن سفيان، قتله سالم بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان. فقال سفيان وهو يرتجز ويجود بنفسه:

الشيخ شيخ ثكلان والجوف جوف حران

والورد ورد عجلان أشكو إليك مرة بن سفيان))[32]

صورة أخرى من صور الرغبة في السطو على الضعيف تتمثل في الثأر من الأطفال وأخذهم بجريرة أوليائهم، فيروي لنا أبو عبيدة صورة أخرى من صور العنف ضد الأطفال فيقول:((ولما قُتل شرحبيل، قامت بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، دون عياله فمنعوهم، وحالوا بين الناس وبينهم، ودافعوا عنهم، حتى ألحقوهم بقومهم، ومأمنهم))[33]ولو تركوا بمعزل عن المنعة، ربما لأُخذوا بجريرة أبيهم ولقضي عليهم وهو عنف ضدهم.

5- العنف مع المرأة شعرا ونثرا

لقد مورس العنف في الجاهلية ضد المرأة في الحياة العادية ما دامت في بعض فئاتها تعدّ سلعة تباع و تشترى ، و من خلال سياق الحروب، فتعرضت للسبي بعد الغزو والإغارة، الإغارة على القبائل أم الإغارة على القوافل، ولذلك كان حظ المرأة من العنف كحظ الطفل منه لضعفهما الجسدي ،الطفل لضعفه الناتج عن الصغر والمرأة لأنها عادة لا تُدرب للحروب والقتال إلا فيما يقل، ولذلك يُسلط العنف ضدها للرغبة فيها واعتبارها متاعا وسلعة، وهناك عنف من نوع آخر تتعرض إليه المرأة يوميا، وهو العنف الصادر من الزوج حتى في الجاهلية ،ومع الاعتراف بأن القانون المعاصر يعاقب على العنف الزوجي ضد المرأة أو ضد الرجل، إذ يمكن للمرأة القوية ممارسة العنف على الرجل ((عنف، انحراف، قسوة excés العنف يعني هنا سوء المعاملة والقسوة الجسدية من قبل أحد الزوجين ضد الآخر، وهي تتراوح ما بين الضربات البسيطة ووسائل العنف مع أو بدون جراح حتى محاولة القتل والقذف الخطير. وهنا يمكن أن يؤلف سببا من أسباب بطلان الزواج أمام القضاء المدني))[34]هذا في العصر الحديث أما في القديم فإن لم تكن للمرأة عشيرة عزيزة الجانب تحميها كما كانت للجليلة بنت مرة فإنها ستتعرض لأسوء أنواع العنف. يروي لنا أبو عبيدة تكملة لقصة هند زوجة حجر حين ضفر بها فيقول:

((وأخذ حجر هندا فربطها بين فرسين، ثم ركضا بها حتى قطعاها قطعا. وقال حجر في هند:

لمن النار أوقدت بجفير لم تنم عند مصطل مقرور
أوقدتها إحدى الهنود وقالت أنت ذا موثق وثاق الأسير
إن من غره النساء بشيء بعد هند لجاهل مغرور
حلوة العين والحديث ومر كل شيء أجن فيه الضمير
كل أنثى وإن بدا لك منها آية الحب حبها خيتعور))[35]

فلم يكتف بالتعذيب والعنف الجسدي وإنما أضاف إلى ذلك عنفا كلاميا لفظيا في شكل أبيات من الشعر تعييرية لها، بغض النظر عن كونها تستحق ما فعل بها أم لا تستحق، وهل هو جزاء عادل أم ظالم؟.

في يوم الكلاب الأول، و كما ورد سرد قصة قتل شرحبيل نثرا يستحضرها أحد أبطالها شعرا في نص من بين عشرات النصوص التي قيلت في قتله إما حماسة وفخرا بهذا القتل من قبل الأعداء وإما رثاء له، و إما وصفا لشجاعته وعزه كملك، فيقول بضمير المتكلم:

قتلت شرحبيل بن عمرو حارث هماما عليه التاج و ابن همام
فلا ترجون يا ابن المرار نصيحتي ولا ود قوم مغصبين رغام
قتلت لك الساعي عليه وحوله تميم، ورامیت الذي تترامى [36]

نص آخر نختاره ليوم الكلاب الأول وهو قول أبو حنش(أحد أبطاله) وهو قاتل شرحبيل بن عمرو:

قل لذا الأكل المرار خذ الملك ولا تبكين قتيل الكلاب
قد تركنا أخاك في حمس النقع صريعا مضرج الأثواب
أسلمته على الكلاب تميم بعد طعن الكلى وضرب الرقاب [37]

والنصان لا يخلوان من ألفاظ القتل والبكاء والصرع والطعن وضرب الرقاب وما إليها من ألفاظ العنف.

6- العنف مع الحيوان

الحيوان ولاسيما الأليف منه، مما يتوفر في الجزيرة العربية يمارس ضده العنف بقسوة، وليس من خلال الاستفادة منه فقط بل أحيانا عبثا، وإذا كان إجهاد الفرس والناقة في الحروب العربية محتما لأن هذه الحيوانات من وسائل الحرب، فإن حيوانات أخرى تتعرض لأقسى أنواع العنف فقط لمجرد العبث والصيد. يروي لنا أبو عبيدة أبياتا عن الإبل فيقول: قال أبو اللحام التغلبي:

ربعنا بالكلاب وما ربعتم وأنهبن الهجائن بالصعيد
سقينا الإبل غبا بعد عشر وغبا بالمزاد من الجلود [38]

وضمن هذا اليوم(خزاز)يورد أبو عبيدة بيتا يحكي حادثة الإيقاد في يوم "خزازى" لعمرو بن كلثوم التغلبي وهو قوله:

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا [39]

وهو ما يحيلنا إلى ما تحفل به هذه المعلقة من ألفاظ في العنف الشديد فهي التي لخصت جاهلية الجاهليين وسرعة غضبهم.

7- الأسماء والألقاب(التنابز والخشونة)

التنابز بالألقاب – كما أسلفنا- من العنف اللفظي، مهما رضي به صاحبه أم لم يرض، لأنه في الغالب الأعم، اللقب السيء لا يرضى به صاحبه وإنما ينبزه به غيره، وهو في الأغلب مؤذ لأنه مثار التحقير والتعيير والحط، ومن أمثلة ذلك في " أيام العب " يروي لنا أبو عبيدة قصة هند التي ولدت ثلاثة وبمجرد الاطلاع على ألقابهم يحدث الاشمئزاز وعدم الرضا. قال أبو عبيدة:((وزوجه هندا، وهي التي يقول لها القائل: ياليت هندا ولدت ثلاثة.. فولدت ثلاثة ذكورة، بعضهم على رأس بعض. ولدت عمرا، مضرط الحجارة، ابن هند، سمي بذلك لشدته، وقابوس، قينة العراق، ابن هند، وكانت فيه حلية أي لينا، وليس بالمخنث، لقب له. والمنذر بن هند الأكبر...))[40]

ومما يتخير للتمثيل في هذا الشأن: أبو حنش، السّفاح،((سليط بن يربوع. واسم سليط كعب بن الحارث بن يربوع، وإنما سُمي سليطا، لأنه كان سليط اللّسان، بذيئا))[41] وهو عين العنف اللفظي كما يُلاحظ .

8- البداوة والحضارة والعنف في الشعر والنثر الجاهليين (ملاحظات واستنتاجات)

لقد ناقش ابن خلدون مسألة أو ثنائية البداوة والحضارة في الكثير من مواضع مقدمته المشهورة، وقرّر بأن((البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقهم، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم...فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها))[42]ولهذا كان جنس القول من جنس الطبع خشونة ،بل ولم تركز الدراسات العربية على جانب العنف والقسوة في دراسات مستقلة عن المجتمعات العربية الجاهلية،((فقد أعطت المكتبة العربية اهتماما لا بأس به لهذا الموضوع، وقد اتجهت الكتابات والدراسات بالعربية إلى تقديم جوانب من الموضوع مثل: التعريف بالمجتمع البدوي وثقافته، التعريف بالقبائل والعشائر العربية في الماضي والحاضر، والتعريف بالنظام القضائي البدوي وغير ذلك من معلومات عامة))[43] تفضي بالضرورة إلى معاينة خشونة الحياة الجاهلية وتبعية العنف اللفظي والجسدي لهذه الطبيعة الخشنة. وكل ذلك بفعل الحروب والصراعات. نعم لم تكن الحرب كل حياة العربي البدوي،((وَلَكِنَّ اَلْحَرْب كَانَتْ فِي بَعْض اَلْأَحْيَان تَكَاد تَسْتَأْثِر بِكُلّ تَفْكِير اَلْبَدْو، وَلِذَلِكَ لَعِبَتْ دَوْرًا مِنْ أَهَمّ اَلْأَدْوَار فِي

أَشْعَارهمْ. وَلَمْ يُمْكِن عَرَضًا أَنْ سَمَّيْت أَقْدَم مُخْتَارَات اَلشِّعْر اَلْعَرَبِيّ بِالْحَمَاسَة ، نَظَرًا إِلَى أَوَّل أَبْوَابهَا وَأَغْزَرهَا مَادَّة، وَهُوَ بَاب اَلتَّعْبِير عَنْ ضُرُوب اَلشَّجَاعَة اَلْمُخْتَلِفَة . وَكَانَ اَلْعَرَب يَفْرَغُونَ حَمِيَّة اَلشَّجَاعَة وَثَوْرَاتهَا فِي أَبْيَات مِنْ اَلشِّعْر قَبْل اَلْقِتَال وَفِي أَثْنَاء مراحلة اَلْمُحْتَدِمَة، كَسَائِر اَلْأَجْيَال اَلْمُسَاوِيَة لَهُمْ فِي مَرْتَبَة اَلْحَضَارَة. وَأَخْبَار أَيَّام اَلْعَرَب وَأَشْعَارهَا فِي اَلْجَاهِلِيَّة وَصَدْر اَلْإِسْلَام، كَمَا رَوَيْت لَنَا فِي اَلْكُتُب اَلشَّعْبِيَّة عَلَى وَجْه اَلْخُصُوص، مِثْل: كِتَاب صَقَيْن لِابْن مُزَاحِم، تَقَدَّمَ حَشْدًا مِنْ أَمْثَال هَذِهِ اَلْمَقْطُوعَات اَلشِّعْرِيَّة اَلَّتِي كَانَتْ تُقَال فِي اِسْتِفْتَاح اَلْقِتَال أَوْ فِي مُصَاحَبَته.))[44] وكل ذلك من نشاط البدوي في البيئة العربية المتطلبة للخشونة والرعونة و العنف الصادر عن تلمس القوة .

لقد اعتاد البدو على السهر كما اعتادوا على القص والحكي، وليس أنسب للحكي من ملاحم العرب وبطولاتهم وانتصاراتهم، فعلاقة البدوي بالقص علاقة وثيقة و من أبدية بمكان،((وَكَانَتْ أَحَبّ اَلْقِصَص إِلَى اَلنُّفُوس أَخْبَار أَيَّام اَلْعَرَب اَلَّتِي جَمَعَهَا اَلْأُدَبَاء كَثِيرًا فِيمَا بَعْد وَلَا سِيَّمَا أَبُو عُبَيْدَة وَاَلَّتِي بَقِيَتْ لَنَا مِنْهَا مَادَّة غَزِيرَة فِي شُرُوح نَقَائِض جَرِير وَاَلْفَرَزْدَق زِيَادَة عَلَى كِتَاب اَلْأَغَانِي))45 لأن هذه النقائض– ببساطة شديدة – تشترك مع أشعار الأيام في الأصل الملحمي البطولي للقبيلة أو البطن في زمن عادت إليه نفس ظروف الجاهلية وعلى رأسها العصبية القبلية التي خلقت الأيام وخلقت شعر الأيام وضمنت الامتداد القبلي والحماسي. ومن أجل ذلك كانت((وعوثة الصحراء وخشونة العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمة ظاهرة))46 أبرز ما يقال عنها الخشونة والغضب والعنف.

الخاتمة

إن مدونة أيام العرب لأبي عبيدة مدونة جامعة للتاريخ الأدبي العربي، كما أنها أيضا مدونة جامعة للتاريخ الحربي، أو تاريخ الصراع الدموي العربي، تاريخ الحروب بين القبائل وبين الأحلاف لأتفه الأسباب، تاريخ العنف غير المشرف، اللهم في شقه ضد الأعداء خارج حدود الجزيرة العربية وهم الفرس، أما بقية الحروب التي كانت في قمة ومنتهى العنف الطويل الذي لا ينتهي، حتى جعلت الولدان يلدون ويشيبون والحرب لم تنته بعد. ومع ذلك فهي في أسلوبها وحقائقها المروعة من أثر العنف صاغها أبو عبيدة بأسلوب مشوق يجمع بين الألم والأسف والمتعة. متعة البطولة والشجاعة والإقدام والمواقف الخارقة

أحيانا والطريفة في أحايين أخرى، فتتجرّ في طريق متعة المعرفة، ولكن حين تتأمل جيدا تدرك أن هذه الحروب هدر للجهد وهدر للطاقة وانشغال بمحاربة الأخ وابن العم بدل محاربة الأعداء الخارجيين. وهي مؤسفة لفظاعتها وتعديها على الحرمات، فهي لا يبقي ولا تذر وكذلك هي الحرب.

و يبقى في الأخير أن نشير إلى أن صور العنف و أشكاله و تجلياته في حياتنا المعاصرة كثرة جدا، و هي – و إن كنا نعيش المدنية و التحضر – ليست فقط في الكلام أو الضرر الجسدي، فحتى العين التي هي حق هي أيضا من باب العنف المؤذي، يضاف إليها عنف النظر الشزر وعنف الصور المؤذية والمظاهر المؤلمة في وسائل الإعلام و وسائل التواصل الاجتماعي و حتى في شوارعنا، سواء أكانت قمامة أم غيرها. وهو الأمر الذي لا نعثر عليه في البوادي والأرياف، ولذلك صارت الصورة عكسية عند العرب، فما كان في جاهليتهم من مستلزمات البداوة صار في أيامنا هذه من مستلزمات وإكراهات الحضارة .

المراجع والاحالات

[1]– سورة آل عمران، الآية 103 .

[2]– الفيروزبادي (مجد الدين بن يعقوب): القاموس المحيط ، ضبط و توثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مكتب البحث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د ط، 1999 ، ص: 756 . مادة عنف .

[3]– إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) مصر، د ط ، د ت، ص : 682 مادة عنف .

[4]– جان فرونسوا دورتيه: معجم العلوم الإنسانية، ترجمة د جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد)، بيروت لبنان، ط 02، 2011، ص: 765، 766.

[5]– بياربونت وميشال إيزار: معجم الأثنولوجيا والأنتروبولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد) بيروت لبنان، والمعهد العالي العربي للترجمة الجزائر، ط 01، 2006، ص: 671.

[6] – جان جاك لوسيركل: عنف اللغة، ترجمة، محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، المعهد العالي العربي للترجمة، الجزائر، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب الأقصى، ط 01، 2005، ص: 26.

[7] – راجع ، إبراهيم عوضين : الأدب العربي بين البادية والحضر، مطبعة السعادة مصر، د ط، 1983، ص: 86 .

[8]– محمد أحمد جاد المولى بك وآخران، أيام العرب في الجاهلية ، منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان، د ط ، د ت، ص: ط.

[9]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة مصر، ط 22، د ت، ص: 64، 65 .

[10]– أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام، ملتقطات من الكتب و المخطوطات ، القسم الأول دراسة مقارنة لملاحم الأيام العربية، عادل جاسم البياتي، مطبعة دار الجاحظ للطباعة و النشر ، بغداد العراق ، د ط ، 1976. (ساعدت جامعة بغداد على نشره)

[11]– أبو عبيدة : المصدر نفسه، ص 380، 381 .

[12]– أبو عبيدة : المصدر نفسه، ص 387، 388

[13]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص 388.

[14] – أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص : 391 ، 392 .

[15]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص : 402 ، 403 .

[16]– أبو عبيدة : المصدر نفسه، ص : 406 ، 407 .

[17] – شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، ص: 62 .

[18]– أبو عبيدة : المصدر السابق ، ص : 407 ، 408 .

[19]– راجع الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): أساس البلاغة ، دار صادر بيروت لبنان، د ط ، 1979 ، ص: 437 . و نصه " عنف – ساق عنيف و قد عنف به و عليه وعنفه : لامه و عيره ، و منه قول سيبويه : لم أعنفه . وقال طفيل :

وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله و عُرّي أفراس الصبا و رواحله

و كان ذلك في عنفوان شبابه وأنفوانه، واعتنف الشيء وائتنفه بمعنى. وتقول: لعنت لحية المنافق وعنفقته شر العنافق؛ و قال ذو الرمة :

تظل درى نخل امرئ القيس نسوة قباحا و أشياخا لئام العنافق

[20] – محمد عزام: مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق سورية، د ط، 1995، ص 537 .

[21]– سراج الدين محمد : الهجاء في الشعر العربي ، دار الرائد العربي ، بيروت لبنان ، د ط ، د ت ، ص : 06 .

[22]– محمد عزام : المرجع السابق ، ص 195 . .

[23]– حنا الفاخوري: الفخر و الحماسة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 05، د ت، ص: 06 .

[24]– محمد عزام : المرجع السابق ، ص 537 .

[25] – أبو عبيدة : المصدر السابق ، ص : 394 ، 395 .

[26]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص :400، 401 .

[27]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص : 403، 404.

[28]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 418 .

[28] – أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 419 .

[30]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 402.

[31]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 404 .

[32]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 405 ، 406 .

[33] – أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 415 .

[34]–حورس نخلة و آخران ، القاموس القانوني الثلاثي ، قاموس قانوني موسوعي شامل ومفصل، عربي – فرنسي – أنجليزي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت لبنان ، ط 01 ، 2002 ، ص: 1226 .

[35] – أبو عبيدة : المصدر السابق ، ص: 395 ، 396 .

[36]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 409 .

[37]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 414 .

[38]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 415

[39]– أبو عبيدة : المصدر نفسه، ص: 383 .البيت محرف في أيام العرب وهو الصحيح المثبت في الديوان . راجع : عمرو بن كلثوم التغلبي: الديوان، جمع وتحقيق وشرح، إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط 01 ، 1991 ، ص: 82.

[40] – أبو عبيدة : أيام العرب قبل الإسلام ، ملتقطات من الكتب و المخطوطات ، ص: 398 .

[41]– أبو عبيدة : المصدر نفسه ، ص: 414 .

[42]– محمد العبده: البداوة و الحضارة، نصوص من مقدمة ابن خلدون ، المنتدى الإسلامي، لندن ، ط 01 ، 1993 ، ص : 44 .

[43]– أبو بكر محمد باقادر: البداوة العربية ، ببليوغرافية تحليلية مختارة ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض، المملكة العربية السعودية ، د ط ، 2000 ، ص : 06 .

[44] – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة، عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة مصر، ط 05 ، د ت، ج 01 ، ص: 49 .

[45]– كارل بروكلمان : المرجع نفسه، ص: 128 .

[46]–أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر للطبعة و النشر ، القاهرة مصر، د ط ، د ت، ص: 32 .